ظاهرة خطرة أمام الحكومة والمجتمع المدني

السوق الثقافي لأدب الأطفال في العراق

محسن ناصر الكناني

(١) المراقب لسوق الثقافة في بلدنا، يلمس ظاهرة خطيرة، تتمثل قي عجز الدولة،عن طبع ونشر مجلات، وكتب، أدب الأطفال، بحيث (بقيت دار ثقافة الأطفال عاجزة مالياً عن طبع نشراتها، وميزانيتها تخضع (للتمويل الذاتي)!

وهذه الظاهرة باتت مقلقة، للآباء ، والأمهات، والتربويين، والمثقفين والمهتمين بالشأن الثقافي، ومنظمات المجتمع المدني المعنيّة بالطفولة، والذين يهمهم، أن يتطور سوق أدب الأطفال، باتجاه ايجابي ، متصاعد. وكلما عقد مؤتمر سنوي لثقافة الأطفال (وآخرها في النجف الأشرف)، فإن توصياته غير ملزمة للحكومة بل تصرُّ، أو تسد آذانها، عن ضرورة دعم الطفولة، بالرغم من ميزانيتها السنوية المتصاعدة!

ويبدو لي، جازماً، إلى رؤية الدولة، إلى الثقافة، وأدب الأطفال خصوصاً؛ رؤية قاصرة، مثل قصر رؤيتها في حقل السياسة الذي أوصل الأمور إلى عنق الزجاجة!

وكان أطفال العراق، الذين يتكاثرون ، ثم يموتون جوعاً، أو يخضعون تحت مظلة (خط الفقر) اللعينة، لا يعنون الدولة، ومؤسساتها في شيء، بل الأدهى من ذلك، أن الدولة تضع برامج إستراتيجية لمحاربة الفقر، ثم يظهر أن البرامج هواء في شبك!

الملايين من أطفال العراق الذين يتعرضون كل يوم إلى الفقر، وخطر المجاعة، ويتسرب الآلاف من مدارسهم إلى الشوارع، بحثاً عن لقمة العيش؛ لا يعنون الدولة البتة، وهي لا تحرك ساكناً...

الظاهرة مقلقة جداً، وباتت معلقة برقبة الحكومة وسياساتها، وما على منظمات المجتمع المدني إلا أن تدّق الجرس، وتضغط على الحكومة، من أجل أطفالنا، ومن جهة ثانية تضع الخطط الكفيلة بإنقاذ الطفولة العراقية، وفق رؤية جديدة...

× ما المطلوب الآن؟

-المطلوب: ميزانية مناسبة، ودار توزيع ، تطبع ، وتوزع الجريدة ، والمجلة والكتاب، والنشرات،تقوم في توجيهها (هيئة رعاية الطفولة) التابعة لوزارة العمل، وفروعها في المحافظات بمؤازرة وزارة التربية ، والتعليم العالي، والصحة، وحقوق الإنسان، ووزارة الشباب ومنظمات المجتمع المدني المعنية بالطفولة، والأسرة، وبإشراف ومتابعة من قبل لجان الأسرة في مجالس المحافظات. هذه الهيئة يناط بها وضع خطة للطبع والتوزيع، والمتابعة، وفق آلية شفافة ومرنة، تلزم الهيئة فيها أطرافها بتوزيع المطبوعات إلى المدارس (قسم المكتبة المدرسية) والى الجامعة (من خلال المراكز الثقافية، والدوائر الإعلامية) وحقوق الإنسان من خلال (مديرية حقوق الإنسان) والعمل ، من خلال (دائرة الأحداث) والبلديات من خلال (المكتبات العامة) ووضع آليات للمسابقات الثقافية، وتشكيل (جماعات أصدقاء الكتاب) وتنشيط عمل النشاط المدرسي، في حقول الأدب والثقافة، بالمشاركة مع مديريات الشباب كافة.

يعني أن (هيئة رعاية الطفولة) لديها النظام الداخلي الذي يؤهلها الآن، أن تتحرك في الأطراف ، بالتنسيق مع دار ثقافة الأطفال، لوجود كادر متخصص معن بالكتابة، ومشرفين ، وخبراء في مجالٌ أدب الأطفال. فضلا عن الرسامين والمصممين.

×××

سوق الأدب الآن

يمكن للمراقب أن يلمس الأطراف التي تتحكم بالسوق وهي:

١. ثمة مطابع، ودور نشر أهلية، تعدُ، وتتصرّف بشعر وحكايات محلية، وعربية، وعالمية، تعدّه وتتصرّف بتقديمه بشكل جذّاب وملوّن، لكنه متهافت، وخطر، ومسموم!

الخطورة فيه، خاضعة لمزاج الدار، واجتهادات لعاملين في الدار، وهو نهج بدأه النظام السابق، في التزامه خطاً شمولياً ذا طابع سياسي. وكأن الدولة العراقية، نائمة، بلا رقيب، تفتح أبوابها للإنتاج الخاص والاستيراد من دون حساب، وقد وجدنا العشرات من العناوين لجرائد، ومجلات، وكتب، يعّج بها السوق، صادرة عن مطابع، ودور أهلية، وبعضها عن مؤسسات دينية، ومراكز ثقافية دخلت ميدان الإنتاج، بعيدة عن الرقابة. وكذلك ما تطبعه وتوزعه دور نشر عربية، أعدت حكايات عراقية، وعربية وعالمية، بشكل (مفبرك) بعيدة عن الآداب، والثقافة وضروراتها الموجهة إلى الأطفال، والمرحلة العمرية، والذهنية، والخيال والقاموس اللغوي. يعني أن هذه الدور ، تعمل على هواها، من دون الاسترشاد برأي الخبراء المتخصصين بأدب الطفل، وثقافتهم.

٢. ثمة دار أميركية باسم (Scholastic) دفعت العشرات من العناوين في حقل أدب الأطفال، وأدب الرحلات، وبالرغم من الطباعة الناجحة الملونة، ذات الغلاف السميك المزود بالصور، إلا أن الكتب تتوجه وفق خط مرسوم، خط سياسي يخدم توجهات العولمة الأميركية ونظرتها إلى الأطفال، يعني إشاعة ثقافة وأدب أميركي، بعيد عن أدبنا وتاريخنا. ويعني كذلك قطع الآصرة- بين آدابنا المحلية، والبداية بأدب وافد، متهافت، يعني أن نبدأ من حيث (هم)، وليس من حيث (نحن)!

وهذا يشكل إساءة بالغة إلى أدب الأطفال الذي نؤمن به، ومسخاً للثقافة العلمية والتوجهات السليمة للتربية، وعلم النفس، في فهم الطفل ككائن مستقل، له ثقافة، وخيال وفكر، وذاكرة حسب المراحل العمرية.

ويبدو أن الدار الأميركية التي مركزها نيويورك، تمد فروعها إلى دول العالم كما مثبت على الغلاف: سدني – بونس أيرس – هونغ كونغ – لندن تورنتو – أوكلند – مكسيكوستي – وتصل إلى السوق العراقي في وضح النهار، وتباع في بغداد، والمحافظات، وتصل إلى الأطراف بخيوط توزيع مع أصحاب الدكاكين واللوازم المدرسية! بسعر مناسب (٥٠٠ دينار) للكتاب، يقابل (٥٠٠ دينار) للمجلة العراقية!

يعني أن هذه الدار مدعومة مالياً. فهل نفكر يوماً بدعم دورنا، وتوزع المطبوعات على أطفالنا بسعر زهيد؟!

٣. المطبوعات التي تصدر عن مطابع أهلية، ودور نشر وهميه، فهي تطبع، وتوزع بضاعتها على أصحاب الدكاكين، واللوازم المدرسية، بطباعة رديئة، وتوجهات غير علمية تركز على (التلوين، والتسالي، والألعاب) ضاربة عرض الحائط ثقافة الأطفال وأدبهم. باستثناء بعض الدور الثقافية الجديدة، بعد التغيير مثلاً(دار صديقي – ودار مؤسسة الهدى- ودار البراق) وأفراد معنيون دخلوا الميدان، فهذه الدور ذوات توجه واضح ومستوى أحسن، لأنها اعتمدت على كادر مثقف معنٍ بالطفولة ممن تقاعد عن الدولة، وعلى مصممين ومنفذين شباب، وكتاب معروفين، لكن مطبوعاتهم، ظلت في المخازن، بانتظار مهرجان هنا ، أو هناك، أو مناسبة وطنية، أو مؤتمر توزع فيه. وحظها في التوزيع، حال المطبوعات الحكومية.

×××

إن سوق أدب الأطفال ، بائس، وبعيد عن الملتقى الصغير، سواء في المدينة، والريف، على العكس في فترة السبعينات من القرن الماضي عندما كانت (دار ثقافة الأطفال العراقية) تنفتح أمامها ميزانية ضخمة فكيف لا تعبر المدن، صوب الريف الى المدارس، ثم تعبر الحدود، إلى دول الجوار، وتصل إلى معارض العالم، وتشارك في المهرجانات، والمعارض العالمية، بحيث كان المطبوع العراقي، يضاهي في جودته، ومستواه الإبداعي، الإنتاج العربي، باعتراف الخبراء العرب.

لكن التجربة العراقية، قد انكفأت، بعد الحرب، والحصار الاقتصادي، وانقطعت عن التواصل، وتشتت كادها، ثم انعزلت. بعد التغيير، جرى ترميم التجربة، وعاد (بعض الكوادر) لكنها ظلّت تعاني (التمويل الذاتي) الذي حرم أطفالنا من زادهم الثقافي.

وثمة بصيص أمل، في الساحة، هذا البصيص أخذ يشتّد نوره، وهو بروز ملاحق ثقافية تعنى بأدب الطفل تصدر عن صحف محلية لها وزنها وثقلها المعرفي، وتوجهها السليم التي أعادت الاعتبار لأدب الأطفال (شعراً ، وقصة ، وسيناريو ملونا وزوايا علمية للحاسوب، والتسالي ، والمعارف ، والألعاب ، ومسابقات للرسم ، والتعارف)، وتقيم مؤتمرات، ومهرجانات ، جذبت المهتمين والمعنيين بشؤون الطفل، مثل ملحق (شمس الصباح) الصادر عن جريدة الصباح، وملحق (مرحباً يا أطفال) عن جريدة (طريق الشعب) وملحق (الأطفال) عن جريدة الدستور، وإصدارات عن منظمات مجتمع مدني نامية، أخذت في النمو والتصاعد، وتطمع في الوصول إلى الأطفال ومنتدياتهم، إلا أنها محكومة بتوزيع الجريدة، وقدرتها المالية المحدودة.

×××

الذي أريد قوله من خلال كلمتي، أن أوضح، وأنبّه الدولة، إلى خطورة ظاهرة السوق الثقافي للأطفال، وفشله في التوجه الصحيح إلى الأطفال. وثمة شيء، بدأ يتململ في الصدور، إلا وهو ضرورة تدارس الحالة، ووضع خطة عمل في العام الجديد، والإسراع في تشكيل الهيئة العامة لرعاية الطفولة العراقية وتنشيط عملها في المحافظات، وترصد لها الحكومة، مالية مناسبة لعملها، ومؤازرتها بالمتخصصين، ومنظمات المجتمع المدني، وإشراف من قبل لجان الأسرة والطفل في مجالس المحافظات.

فهل نستطيع أن نواجه الظاهرة، ونعالج آثارها السلبية وننجح في الوصل إلى الأطفال، وتوجيههم الوجهة الصحيحة ونبني كيانهم، ونزرع فيهم الأمل.اعتقد أننا نستطيع. والخطوة الأولى هي البداية في طريق الألف ميل.

"مطاردة الشيطان".. حيث صار العبيد أسياد عبيد!

عادل العامل

تمتلك سيراليون وليبيريا تاريخاً متماثلاً بالإضافة إلى تقاسمهما حدوداً مشتركة. وكلتاهما كانتا مستقرّاً لعبيد سابقين، من بريطانيا والولايات المتحدة على التوالي؛ ولهذه الحالة يمكن أن تُعزى ولو جزئياً الحروب الحديثة في الدولتين نظراً لكون العبيد السابقين والسكان المحليين قد شكّلا جماعتين ثقافيتين واجتماعيتين- اقتصاديتين متميزتين.

وقد أصبح عبيد ليبيريا السابقون سادة للعبيد في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، ليقوموا بإرسال مئات الرجال المحليين القادرين بدنياً إلى المزارع في فيرناندو بو، ويخلقوا بذلك ارتباكاً لدى المجتمع الدولي.

وكتاب (مطاردة الشيطان Chasing the Devil) ، كما يقول مارتن دراكارد في عرضه للكتاب، هو كتاب الرحلات الأفريقية الثاني للصحفي البريطاني تيم بوتشر Butcher ويقع في ٣٢٥ صفحة. وكان، في الكتاب الأول، (نهر الدم)، يتتبع رحلة المستكشف هنري مورتون ستانلي على طول نهر الكونغو. أما في الثاني، فيتتبّع الرحلة البرية على الأقدام التي قام بها الكاتب والجاسوس البريطاني غراهام غرين، وابنة عمه باربارا، من حدود سيراليون / ليبيريا، صعوداً إلى غينيا، ونزولاً إلى بوكانان على الساحل، أي ٣٥٠ ميلا إجمالاً، ومن ثم بواسطة البحر إلى منروفيا وبطريق البر إلى فريتاون.

لقد قام غراهام غرين برحلته على الأقدام في عام ١٩٣٥، باحثاً عن هوية له، وراح يقارن رثاثة وكآبة الحياة المتمدنة الحديثة مع براءة وبساطة أفريقيا التقليدية. وفي عام ٢٠٠٩ وفي أعقاب حرب الماس الدموية، وقبلها إعدامات الساحل المشهورة لكامل مجلس وزراء الحكومة الليبيرية)بعد مقتل الرئيس وليام تولبيرت في انقلاب ١٩٨٠ الدموي بقيادة العريف صمويل دو، الذي قُتل في ثورة ضده عام ١٩٩٠)، فإن القليل من البراءة قد تبقّى هناك.

وبالنسبة لتيم بوتشر ورفيقه في السير ديفيد، وهو خريج أكسفورد لكن أصغر منه سناً بعشرين عاماً، فلا شيء قد تغيّر في الداخل منذ أن كان غراهام غرين وابنة عمه هناك : الفقر القذر، وشياطين الأحراش، وعيشة الكفاف، والمعتقد الخرافي والقتل الشعائري.

لكن بحث بوتشر كان مختلفاً؛ فقد أراد أن يكتشف ما الذي كان يسبب ذلك التخلف.

وقد حصل على مفتاح لذلك من أومارو، سائق الدراجة النارية الذي حمل معداتهما وتجهيزاتهما ومن ملاحظاته هو. إن مواصلة البقاء حياً في الأحراش أمر عسير ، بحيث أن أحداً لا يمكنه أن يتجرعه وحيداً. ولا بد للفرد من الإذعان للمجتمع، وكل واحد يقوم بدور في هَرَمية من الباحثين عن المعرفة القادرين على جعل البيئة القاسية مقبولة.

فليس هناك من مكان للفردية، أو المبادرة الخاصة أو النجاح الشخصي؛ وأي واحد يقف فوق المجموعة سيكون ضحية للغيرة أو الحسد، ويعامَل وفقاً لذلك وبشدة. ولا بد لشيطان النجاح الشخصي من أن يلاحَق و يُطرَد بعيداً؛ وهذا ما يقوله نظام العقيدة الخانق في المجتمع. فإذا أردتَ الاستمرار في البقاء، امكث في البيت؛ وكي تزدهر أحوالك، يجب أن تبتعد.

إن تقرير المؤلف معبّأ بالملاحظات والحكايات النادرة. وتمثُل أمامي اثنتان بوجه خاص : الأولى، مقابلته البروفيسور ألدريد جونز، وهو في ثمانينياته وأعمى كلياً، لكنه قام بدور كبير في تدريب أكاديميين وإداريين لغرب أفريقيا، من كلية فوراه بَي في سيراليون؛ والثانية، تعليق غراهام غرين بأنه في كامل تجربته بغرب أفريقيا، لم يسمع على الإطلاق طفلاً أفريقياً يبكي. ولا أنا.

■ عن: all Africa

المؤلف

غراهام غرين

صمويل دو

غـــابةٌ أخـــرى

محمود النمر

من يسمحُ لي..؟
كواكبي ...انحدرت من مداري
منْ يصف العالمَ دون مدار؟
عيناي ترقبانِ كلَّ شيء؟
منْ يتعرى أمامَ الضوء؟
منْ يسبحُ في النور؟
ساعة الصفر تحكم قبضتها
الكواكب بدأت تنسلخ
تتوالد خارجَ مداري
النيازكُ تكبرُ في كل يوم
تتوحدُ في الضباب
وأنا أسمعُ نزفَ دمي يتخثر
ومداراتي المتوقدة تستكين
فاستقري ياروحي الحالمة
اسمعُ وقعَ خطى الخريف
وأنت بلذّة المكابرة
تعطفينَ على شهوتك الأفعى
وتبرمينَ ما تبقى من حبالها القنب
الخمسون عبرت خمسةً أخرى
وأنت تحرثينَ ما تبقى
كواكبي... تستلقي على أسرّةِ الجمر
والنوافذُ مترعةٌ بالشبق
وهي تسحبُ نيزكاً للغناء
أسرّتي... تكبرُ مثلما النوافذ
كواكبي .....
افرحُ أن تهاجري مداري
وتكبرينَ خلسةً
وتجمعينَ ما توارى من ضفائري
وتحرقيها خارج المدار
لعلني أخرجُ من تحجّري
في أول الإعصار تكبو نجمةٌ
في آخر الإعصار لا تنخرطُ النجومُ بالبكاء
كواكبي.....
ألقت على عاتقها ألّا ترى خمراً على مائدتي
ولا ترى امرأةً ترقصُ في مظلّتي
أذوقُ من تفاحتي المحرّمة
تلك هي العبارةُ الأخرى
في الغابة الأخرى
في غاية السمو
كواكبي تجهشُ بالبكاء في الجنوب
كي لا تراني شاخصاً
في وحشةِ المدار

نافذة ضوء

الناقد علي حسن الفواز: التحولات الكبرى تبدأ بمفاهيم كبرى

المدى الثقافي

عالم المعرفة يقود المبدع إلى نوافذ كثيرة منها عالم الثقافات؛ الشعر، السرد ،النقد ، التشكيل ، والفلسفة ، هذه جسور تمتد لفتح آفاق كبيرة للمعرفة كأن يكون التنظير أحد جوانبها ، وهي اشتغالات تدلل على وعي متقدم، ربما يعطي ثمارا ذات أهمية كبرى في عالم الثقافة.

× ما الذي يشغلك الآن بعد صناديق الشعرية المقفلة؟

– ما يشغلني هو إكمال كتبي المعلّقة، إذ أني أعمل الآن على ثلاثة كتب بعضها يتعلق بالنقد ،وبعضها يتعلق بالفكر السياسي، لكني أعيش هواجس وتفاصيل الحياة التي تربكني في إعادة تنظيم يومياتي الثقافية، التي أجد أنها تحتاج إلى الكثير من التنظيم، والتي تؤكد ما كنت اطرحه سابقا ، بأن المثقف المنظم هو المثقف القادر على بيته الثقافي ويدوزن اشتغالاته الثقافية، بالشكل الذي غير خاضع لمزاجيات الكتابة الإعلامية التي تورطنا بها للأسف بشكل كبير جدا ،ما يشغلني أيضا هو هذه المخاضات الأمنية المرعبة التي تهدد الأمن الجمالي والأمن المعرفي وكلنا يعرف أن المثقف من دون هذا الأمن الجمالي والمعرفي فانه لا يتأمل الأفق بشكل صحيح ، المثقف هو مواطن حسي ومواطن حسّاس، وأي محاولة لخرق هذه الحساسية فإنها تضع المثقف في زاوية لزجة.

ما يشغلني أيضا هو كيفية تعزيز دور المثقف العراقي في المشهد الذي غلبت عليه اللامهنية، واعتقد أن إثراء دور المثقف في هذه المرحلة ودعم دوره الشجاع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا العراق الجميل، اعتقد أنها مهمة مكلفة ومهمة متعبة ، ومهمة ستضع الشاعر والروائي والقصاص أمام الكثير من المسؤوليات التي تحتاج إلى دربة وتحتاج إلى مران وسياق ولغة وتحتاج الى وعي يمارس لعبة الصحو الكامل.

× أراك تنحو في الكتابة إلى الجانب التنظيري في عالم الثقافة؟

– الأشياء الكبرى عادة تبدأ بمفاهيم كبرى وتبدأ بنظريات كبرى وطروحات كبرى ، اعتقد أن العقل الغربي حينما أسس الحضارة ،وحينما كرس قيم المدنية ، وقيم العمران الثقافي ،فانه كرسها وفق وجود أرضية نظرية يمكن أن تستوعب الجوانب الإجرائية بشكل صحيح، الثقافة العراقية أو الثقافة العربية بشكل عام ثقافة تغيب عنها النظرية ،هي ثقافة إحداث ثقافة وقائع ثقافة، تفاصيل ثقافة، خضوع ثقافة سلطة، واعتقد أن هذا النمط من الثقافات هو الذي جعل الثقافة العربية والعراقية بشكل خاص تعاني العري الكبير، ما نحاول عليه الآن هو أننا نضع العقل الثقافي العراقي في منطقة التنظير ، لكي نسلحه ونؤهله ونجعله قادرا على أن يتفاعل مع الحضارة ،يتفاعل مع العولمة، يتفاعل مع الجدة، يتفاعل مع قيم ما بعد الحداثة ، بشكل يمنح هذا العقل الأهلية ويمنحه الأسلحة الكافية لكي يواجه، ولكي يعيد تصميم الحياة بشكل صحيح ،لكي يعيد من أعطى الإنسان جرعات عالية من الوعي الفاعل ،والوعي ينبغي أن يكون فاعلا، ينبغي أن يكون حرا، ينبغي شجاعا، ينبغي أن يكون مسؤولا ولديه الأهلية للانتماء والحوار مع الآخرين ،نحن لا نؤمن بوحدانية هذا الوعي ،بعزلة هذا الوعي ، الوعي الذي تصنعه الأمكنة العاطلة ، اعتقد أن إعادة تنظيم النظرية بالشكل الذي يجعلها فاعلة في تأهيل الإنسان ، اعتقد أنها مسؤولية كبيرة ينبغي أن ينهض بها المثقفون والمؤسسات الثقافية ،لأن المثقف وحده لا يمكن أن يصنع نظرية ، النظرية عادة تصنعها مجموعة من العوامل التاريخية قد يكون المثقف، قد يكون المنظر والباحث ،وهو طرف مهم فيها إلا انه يحتاج إلى طيف من هذه الاشتغالات التي تعطي للنظرية قيمتها التاريخية والثقافية وقيمتها في تهيئة المفاهيم والأفكار والمصطلحات لكي تكون أسلحة حقيقية في مواجهة العالم.